أدب الآخر.. والمرأة

نضال الإرياني

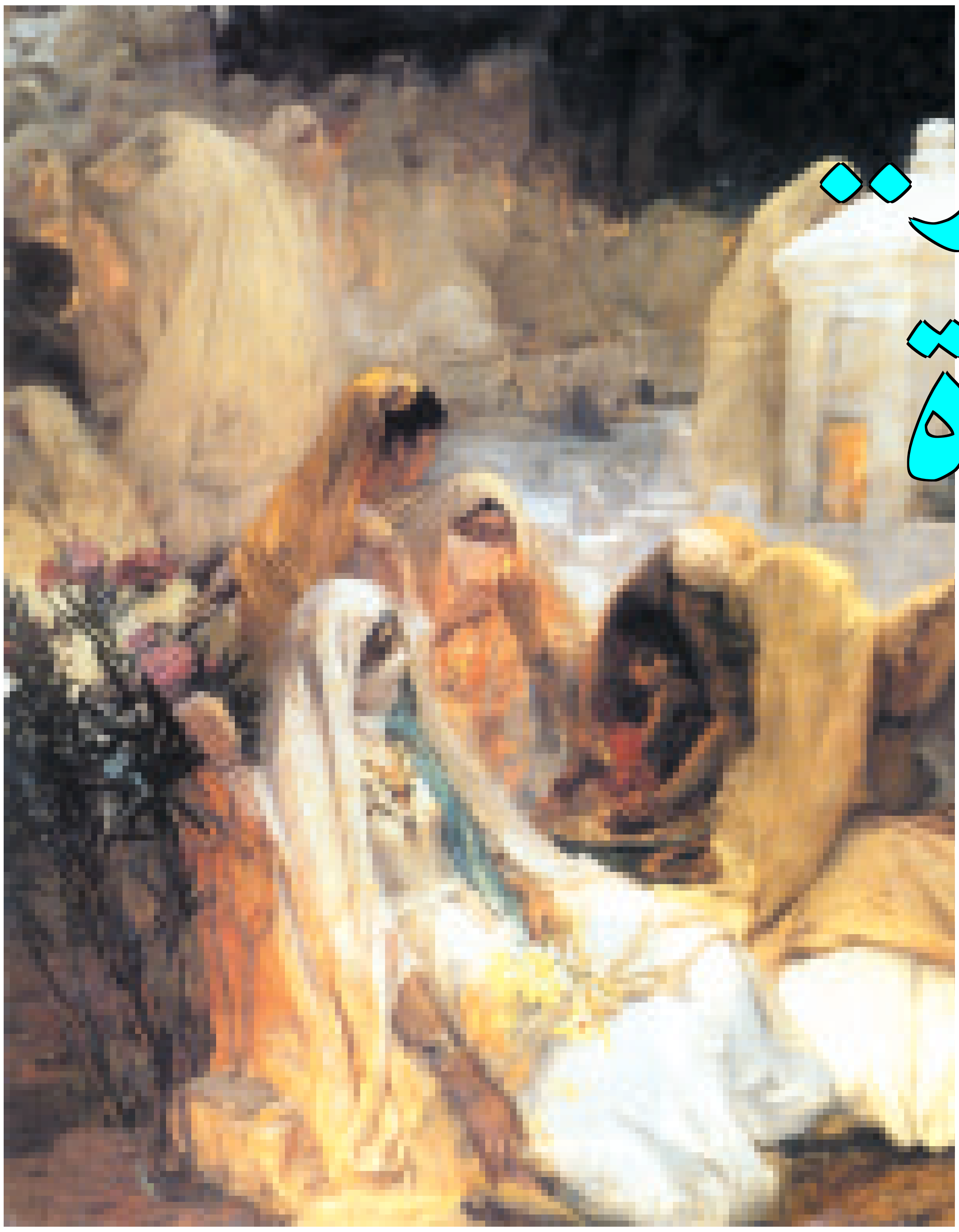

■ ،، رحلت مع الأديب الألماني «هرمان هيسه» بين صفحات إحدى مجموعاته القصصية الموسومة بـ «تجوال»، والتي نزح من خلالها إلى الحرية المطلقة والانطلاق اللامحدود في هذا الكون الفسيح الزاخر بمفرداته البديعة، ليتفكر فيها ويتوحد معها، والتي - برأيي - تُمثِّل المرأة أبدع تلك المفردات وأنبلها على الإطلاق .. لكنها لم تكن كذلك لدى «هيسه» .. إذ اعتبرها قيداً يعيق تحركه وانطلاقه في عالم حريته المنشودة .. وقد عبر عن ذلك بصراحة لا تشوبها مواراة .. حيث قال : «... ولكنني رجل محكوم بعدم الوفاء .. إنني أنتمي إلى تلك الأصوات الريحية التي لا تحب النساء، التي تحب الحب فحسب»..

■ وإذا كان «هيسه»، في قوله السابق، لم ينكر حاجته الماسة والطبيعية لها، إلاَّ أنه جعل حاجته تلك لا تربو عن كونها حاجة مادية (جسدية) لا روحانية فيها..

■ ويؤكد لك في مكان آخر من مجموعته تلك، وذلك عندما عاوده الحنين الفطري لأن يكون على رأس أسرة يجمعه معها منزل جميل وسعيد، إلاَّ أنه لم ير في المرأة حينها سوى (أسرّة مريحة)، ومصدراً لإشباع حاجة مادية أخرى هي الطعام .. حيث قال : «تتملكني رغبة بالسكينة والسلام، وبحياة عادية، أتوق إلى أسرّة مريحة، ومقعد في الحديقة، ورائحة تصدر عن مطبخ لطيف..»..

■ وبذلك أكد «هيسه» على أن المرأة تُمثِّل لديه حاجة مادية يتم تعامله معها كمثل تعامله مع أي مادة استهلاكية تلبي حاجاته الآنية المتجددة لا أكثر..

■ والحقيقة أن ذلك قد يبدو طبيعياً ومتناسباً مع خصائص الشخصية المادية لرجل غربي مثل «هيسه»، وإن لم يكن الأمر طبيعياً بصفة عامة .. فها هو شاعرنا الجاهلي، الذي لا يختلف عن «هيسه» في الخصائص المادية لشخصيته الجاهلية، نجده - رغم جهالته ورغم الفوضى والعبثية التي غلفت حياته، وفي وقت لا نستبعد فيه عبثية تعامله مع المرأة وممارسته لأعمال لا إنسانية حقيقية، عنيفة ووحشية بحقها (وأد البنات) - يطلق للمرأة في الوقت نفسه أجمل وأرق وأسمى المشاعر الإنسانية الراقية والنبيلة، ممثَّلة في قصائد شعرية هي أروع ما كتب عن المرأة من شعر، وظل يتعامل معها كأهم مصدر للإلهام الشعري وجعلها أهم مفردة من مفرداته .. بل إن المرأة استحوذت على أسمى غرض من أغراض الشعر وهو الغزل، واستنزفت رقيق لغة الشعراء ونبيل مشاعرهم، التي سفحوها قرباناً في محاريبها المقدسة، سعياً منهم - وعن طيب خاطر - إلى أن تبقى المرأة رمزاً لجمال الحياة وحلاوتها، وإلى أن تبدو، خلال تناولاتهم، في أبهى حلة وأزهى صورة، وإلى أن تتمتع بـ (رفاهية روحية، نفسية) منقطعة النظير..

■ صحيح أن صورتها ظلت، من خلال ما كتب عنها من قصائد، لا تخرج عن إطار دورها النمطي المعروف، وتؤكد فكرة دونية المرأة في المجتمع الجاهلي، إلاَّ أن الروحانية المطلقة كانت تشع من جنبات تلك القصائد، وتم تناول المرأة بقداسة ونبل وبأسلوب راقٍ وأحاسيس مترعة بإنسانية مفرطة تشير إلى طفرة في المشاعر الإنسانية النبيلة..

■ ويبدو لي أن هذا التضاد بين تعامل الشاعر الجاهلي مع المرأة في الواقع - الخيال، يُمثِّل انفصاماً إيجابياً ناتجاً عن أن جهالته أو جاهليته لم تنف عنه تماماً صفة التمتع بالفطرة الإنسانية السليمة المعافاة من كل سوء..

■ ولا أدري لماذا تحضرني الآن صورة المرأة التي رسمها عنترة، دون غيرها من الصور التي يزخر بها الشعر الجاهلي .. حيث قال :

«ولقد ذكرتك والرّماح نواهل
منّي وبيض الهند تقطر منْ دمي
فوددت تقبيل السَّيوف لأنّها
لمعت كبارق ثغركِ المُتبسمِ»

■ وهي صورة ناطقة بمعانيها المكتنزة، غنية عن أي شرح أو تأويل .. وقد ظل الأمر - التعامل مع المرأة من خلال الفطرة الإنسانية السليمة - كذلك، وما يزال في كثير من الأحوال، إلى أن تم الانفتاح (اللاواعي) على الثقافة الغربية وتسللت خصائص الشخصية المادية إلى أدبائنا نتيجة لذلك، لتُمثِّل (أخبث فيروس) نال من تلك الفطرة الإنسانية العامرة بالصحة والعافية، وغدا من الممكن .. بل ومن الضروري، لمسايرة روح العصر، أن نجد تناولات هنا وهناك تتعامل مع المرأة وتتناولها بعبثية خالية من الروحانية والقداسة والنبل .. ولعل خير دليل على ذلك هذه القصيدة (الحديثة) لأحد شعراء الحداثة .. حيث يقول :

«أحتاجُ إليك بشكل مؤقَّت
يُمكن أن تُسَمّيه حُبَّاً أو عشقاً أو جنوناً
ما أحتاجهُ ليس عناقاً
أو قُبلةً عابرةً
لكنّه، أيضاً، ليس دواماً طوال اللَّيل
لساعة واحدة فقط
أُريد أنَّ أُعرّيكَ تماماً
ثُمَّ آخذكِ إلى الحمَّام
وأُدلِّك جسمك بالصَّابون وتُدلّكينني
حتَّى يسهل الدَّخول إليكِ والخروج منّي
بعدها تقفين عاريةً
تُنشّفين جسمك
بالمنشفة الَّتي أُقَدِّمها للنَّاس الَّذين لا أهتم بهم كثيراً
وتذهبين دون وداع.»

■ وهكذا، فقد عكس هذا الشاعر الحديث من خلال قصيدته تلك، خصائص الشخصية المادية الغربية وبكل تفاصيلها، ولم يترك فيها أدنى بصمة تعكس الخصائص الخاصة لشخصيته وهويته الحضارية المطعمة بـ (الفطرة السليمة)، وقدم قصيدته لامرأة اليوم (كهدية مفخخة)، ليس لتناولها في إطار المسكوت عنه وبأسلوب يعزز نمطية صورتها في المجتمع، واعتباره لها لا تفيد ولا تجيد سوى (التدليك)، وإنما لأسلوبه العبثي المدجج بالتعسف والعنف النفسي واللاإنساني .. فقد أطلق، من خلال قصيدته، مشاعره (الدراكولية) المرعبة التي تنبئ عن جدب وتصحر وعجز عن التشبع بتلك المشاعر الروحية النبيلة، التي تجيد التعامل مع هذا الكائن الملائكي المقدس والحديث عنه في لحظة هي من أكثر اللحظات حميمية وقداسة، ليحوز بذلك على قصب السبق في اللاشاعرية واللاإنسانية وبامتياز..

■ وهكذا تبدو صورة امرأة الأمس، التي كانت تواري التراب ويحول بينها وبين حقها في الحياة، بينما خلدتها تناولات الشعراء في أروع القصائد الشعرية، أكرم، وأوفر إنسانية من امرأة اليوم، التي تعيش (عصر المرأة)، بينما تبدو صورتها في منتهى البؤس، ويمارس ضدها أبشع أشكال التعسف والعنف النفسي واللاإنساني حينما نراها خارجة من ذلك اللقاء، الذي يفترض أن يكون حميمياً، دون وداع..

■ وهكذا تبدو لنا المقارنة واضحة بين جاهلية شاعر الأمس وحداثة شاعر اليوم، الذي بدا لنا من خلال قصيدته وكأنه يصارع الموت ويعيش لحظة احتضار أخيرة أجبرته على التخلي والتنكر لإنسانيته، ليقتبس حياة زائفة من الآخر (الثقافة الغربية)، مضحياً بكل المزايا الإيجابية الخاصة في سبيل أن تسلط عليه الأضواء، كونه - كما يتوهم - مجدداً في الشعر .. بل يحلم عبثاً بأن الفضل سيعود إليه في إعادة الحياة والحركة للشعر العربي والثقافة العربية عامة، عندما انفتح انفتاحاً لا واعياً على الأدب الغربي وشرب منه حتى (الثمالة)، فلم يجد بعدها بُدّاً من العودة إلينا مترنحاً مختل التوازن، ليتحفنا برائعته التي حملها من غريب خصائص الشخصية المادية، مما جعلها تُمثِّل، وبحق، (ظاهرة طارئة ومخيفة) ناتجة عن التفاعل السلبي واللامسؤول مع ثقافة الآخر..

■ ولا يعني هذا إيقاف التواصل مع الآخر .. إذ أنه مطلب أساسي في سبيل التجدد والاستمرار في العطاء والحياة، لكنه - من جهة أخرى - يجب أن يكون تواصلاً واعياً وفاعلاً .. بمعنى أن ينتج شاعرنا، بتواصله مع الآخر، فكراً وثقافةً ونتاجاً شعرياً متميزاً، لا أن يعيد إنتاج (مخلفات) فكر وثقافة الآخر دونما اعتبار لهويته الثقافية والحضارية، التي يُمثِّل الأدب - والشعر أهم نتاجاته - الوعاء للمعنوي منها، بما يعني ذلك من ضرورة اليقظة ليتم التواصل بشكله الإيجابي، خاصة في هذه الأثناء التي يسعى الغرب فيها إلى احتواء، بل التهام الآخر حضارياً..

■ وبذلك، تبدو لي مثل تلك القصائد، أكبر انتكاسة مُني بها شعرنا الحديث، لأنها تنبئ عن تجاوز شعرائه، تجاوزاً صارخاً لخصائص الفطرة الإنسانية السليمة، وما يترتب على ذلك من بليغ الأثر على صورة المرأة في الأدب - الشعر - وعلى الحياة بما تعكسه تلك الصورة من ظلال داكنة في الواقع المعاش..

■ وبعد .. هكذا أنتم، عندما تيممون وجوهكم صوب (الحداثة)، لا تجدون أمامكم سوى المرأة لتلقون على كاهلها أساسكم غير المحتمل، وتتركون العنان لعبثيتكم المطلقة لتخط لها صورة ذات ملامح غائمة بل ومتفحمة السواد..

■ كان ذلك هو أقصى ما استنفره قلمي من قدراته وإمكاناته المتواضعة، التي سعى من خلالها إلى مد جسور الحوار .. فهل من سبيل للوصول إلى (لقاحات) تقينا شر الإصابة بفيروس (اعتلال الفطرة الإنسانية المكتسبة) ليسود الخير ويعم السلام؟..